بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 54 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:24\04\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

وصل الكلام إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فيما يرتبط بالبحث السياقي ما زالت هذه السورة تستعرض آيات الله وآلائه ودلائل إعجازه وبرهان توحيده، والفرق بين هذه الآية والآية السابقة: أن الآية السابقة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ثم تكلم عن الشمس والقمر، كما لاحظنا هي آية سماوية، وفي هذه الآية الحديث عن آية أرضية يشاهدها الإنسان في هذه الأرض التي يعيش عليها، هذه الأرض بما تتكون من بر وبحر، فيشاهد السفن تذهب وتسير وتجري مع الرياح، ولا تنزل إلى أعماق البحار وقعرها.

فهذه آية أخرى من آيات الباري تبارك وتعالى التي في الوقت نفسه تتضمن برهان توحيده، وفي الوقت نفسه تستبطن نعمة من نعمائه.

أما أنها تستبطن آية من آيات توحيده؛ باعتبار أن العوامل التي تؤدي إلى سير السفينة لو تغيرت عما هي عليه لما سارت السفينة، فلو لم يكن هناك ريح أو كانت هناك ريح إلا أن كثافة الماء لم تكن بالشكل الذي هي عليه أو كانت كثافة كما هي عليه لكن من ناحية الحرارة أو البرودة لم تتحول إلى بخار أو إلى ثلج فما كانت السفن تسير بالشكل الذي هي عليه.

فالذي رتب هذا النظام بحيث إن السفن تسير في المحيطات وفي البحار بيسر وسهولة اعتماداً على ما خلقه الباري تبارك وتعالى، من دقق في هذا الأمر الذي هو بمرأى ومسمع من كل أحد، لكان ذلك دليلاً بيناً ومعجزة باهرة وبرهاناً ساطعاً على ربوبيته تبارك وتعالى وعلى تدبيره.

فأي تغير في هذه العناصر الدخيلة في سير السفينة وفي سير السفن لما بقيت على ما هي عليه، إذن من هو الذي خلق الرياح؟ من هو الذي أودع الكثافة الخاصة في المياه؟ من هو الذي جعلها على برودة وحرارة تتناسب مع سير السفن؟ ليس إلا الله تبارك وتعالى.

فإذن الآية السابقة كانت آية سماوية، وهذه الآية آية أرضية بمرأى ومسمع من الإنسان، فقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كما ذكرت سابقاً هذا التعبير لا يقصد منه راءٍ معين، عندما تصل البينة ويصل البرهان إلى مكان من الوضوح بحيث يتأتى فهمه من كل أحد، فالخطاب حينئذ لا يكون مقصوداً، فليس المقصود هو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله بخصوصه.

نظير: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإذا أنت اكرمت اللئيم تمردا

أي: كل شخص يفعل هذا الفعل، فلا يقصد مخاطب معين دون مخاطب لآخر؛ لوضوح حال الكريم ولوضوح حاله اللئيم.

كذلك فيما نحن فيه، الفلك والسفن التي تمخر عباب الماء بمرأى من كل أحد، ولا يحتاج إلى عقل فيزيائي حتى يهتدي إلى آية إعجاز الله تبارك وتعالى في هذه الظاهرة، بل هي واضحة لكل أحد، فقط يحتاج إلى أن ينظر إليها بعين البصيرة.

إذن هذا السياق سياق واحد، ما زال الكلام في دلائل ربوبيته وفي إعجاز تدبيره تبارك وتعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ اختلف المفسرون في هذه الباء ﴿بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ هل هي باء السببية أم هي باب المعية والتعدية.

إذا قلنا بأنها باء السببية، أي: السفن تجري في البحر بسبب نعمة الله، نعمة الله بالريح، نعمة الله بكثافة الماء، نعمة الله بالخشب الذي خلقه الله سبحانه وتعالى شجراً وجعله يطفو على وجه الماء. إذن بسبب هذه النعم الإلهية تجري السفن آمنة إلى مستقرها.

أما إذا قلنا الباء للتعدية والمعية، أي: يريد أن تبين الآية الشريفة إلى أن هذه السفن تسير من مكان إلى مكان محملة بنعم الله من الطعام والشراب والوسائل يحتاجها الإنسان.

لكن مقتضى السياق من جهة، ومقتضى الآيات المشابهة من جهة، نستبعد المعنى الثاني، هذه السورة بسياقها كما نلاحظ لم تدخل في تفصيلات الحاجة إلى تلك الآيات الكونية، إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ماذا نستفيد منه؟ لم تذكر الآية، وحركة الشمس والقمر لم تذكر الآية، وإنما وجهت الأمر وسلطت الضوء على هذه الآيات بذاتها، فمقتضى السياق أن الآية هو حركة السفن من دون أن تغرق بقدرة الله سبحانه وتعالى بما هيأ لهذه الظاهرة من أسباب. أما هذه السفن ماذا تحمل بها؟ وماذا لا تحمل بها؟ لا يتناسب مع السياق.

كذلك إذا رجعنا إلى الآيات المشابهة، الحديث عن الفلك في القرآن الكريم لا يقتصر على هذه الآية، بل هناك آيات كثيرة مشابهة، مثلاً: في الحج التي هي من أقرب الآيات إلى هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: بأمره التكويني، بخلقه للرياح وبخلقه للماء بكثافة معينة.

أما هذه الفلك ماذا تحمل من نعم الله سبحانه وتعالى لا يتوقف عليها إثبات مدبريته على بيان هذه النكتة.

وقالوا في علوم الأدب: أنك لو أتيت في الكلام بقيد سوف ينصب المقصود على ذلك القيد، فلو كان المقصود بيان الفلك التي تسير في البحر محملة بنعم الله، فتكون الآية هي التحميل بنعم الله لهذه السفن، لا مجرد جريان السفن، وهذا خلاف ظاهر الآية المباركة.

وكذلك بشكل واضح في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فأكثر المفسرين ذهبوا واختاروا هذا الرأي، وهي أن الباء للسببية.

إذن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا لا تحمل على الرؤية البصرية، أي: لو فرضنا أن شخصاً لم يجاور في حياته بحراً، وفي وقت نزول هذه الآية لا يوجد تصوير وتلفاز وما شابه ذلك، لكن الكل يعرف هذه الظاهرة حتى ولو لم يرها بأم عينه، سمع من الذين سافروا وذهبوا وإلى آخره، فهذه الظاهرة بينة لكل أحد، فحينئذ تحمل الرؤية على العلم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم. وهذا علم واضح لديك.

وعادة يعبر في المحسوسات عن العلم بالرؤية؛ لكون الرؤية هي سبب لحصول العلم بالمحسوسات.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾، ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ للوهلة الأولى قد يظن أن كل هذه العملية دبرها الباري تبارك وتعالى -أعني: جريان الفلك في البحر- لأجل أن يريكم آياته، وليس لها فائدة أخرى.

لكن في الواقع الخارجي ليس كذلك، على الرغم من كونها آية من آيات الله، إلا أنها لها فوائد جمة، ينتفع بها الإنسان، ينتقل من مكان إلى مكان، يقرب المسافات ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾[1] وما شابه ذلك لها منفعة، غير كون هذه الظاهرة آية من آيات الله تبارك وتعالى على توحيده ودال على ربوبيته وتدبيره.

لكن في الواقع المقصود باللام في هذه الآية: ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ ليس هو تعليل خلق هذه الآية، وإنما هو تعليل لفت النظر إليها، أي ألم تر أيها الإنسان هذه الظاهرة؟ فإذا رأيتها تكون النتيجة ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ فالالتفات إلى هذه الظاهرة والتأمل بهذه الظاهرة ينكشف لك آية من آيات الله تبارك وتعالى.

واللطيف أنه قال ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ من هنا بشكل واضح لأجل التبعيض، هذه آية واحدة من آيات الله تبارك وتعالى التي لا تعد ولا تحصى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هذا التتميم في الآيات القرآنية كما لاحظتم منذ بداية السورة ونحن نقف عنده، هذا التتميم ملفت للنظر، وحتى يتضح لنا لابد من الوقوف عند قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ نلاحظ أن هذا التعبير في القرآن الكريم تكرر، ففي سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ونكمل ذلك في الدرس القادم.

---

[1] النحل 9